

حول استقلال الكلمات

في المعاجم

للأستاذ أبي خلدون ساطع الحصري بك

—*—

لا أزال أذكر الحيرة الشديدة التي تملكنتني عندما تصفحت المعاجم العربية الحديثة قبل سنوات . فقد كنت أريد تزويد ابني بمعجم صغير يرجع إليه في معرفة معاني الكلمات من جهة ، ورسم حروفها من جهة أخرى ؛ فاستشرت جماعة من معلمى العربية وعلمائها عن أحسن المعاجم المختصرة التي تحقق هذا الغرض . . . غير أني ، عندما قلبت صحائف المعاجم التي دتوني عليها وقعت في حيرة ، إذ وجدت كلها مرتبة على نمط المعاجم القديمة ، وسائرة على خطها ، لأنها ترتب الكلمات بحسب موادها الأصلية ، ولا تراعى ترتيب الحروف الهجائية إلا في تلك المواد . . .

وحيرتني هذه تحولت إلى دهشة شديدة عندما أفضيت بها إلى جماعة المعلمين والعلماء ، ووجدتهم يحارون لحيرتي ويستغربون لاستغرابي ، كأن الأمر من الأمور الطبيعية التي لا داعي للحيرة فيها ، ولا مساع للاعتراض عليها . . .

ودهشتي هذه وصلت إلى أقصى حدودها عندما رأيت هؤلاء ينبرون للدفاع عن خطط تلك المعاجم . . . إذ قال أحدهم :

— ولكن اللغة العربية لا تشبه سائر اللغات . . .

وقال آخر :

— إن طبيعتها تختلف عن طبيعة تلك اللغات . . .

وما كدت أستفيق من الحيرة التي أوقمتني فيها هذه الكلمات حتى هممت بالرد قائلاً :

— وما علاقة المعجم بطبيعة اللغة ؟ إن الفرض من المعجم هو ترتيب الكلمات ترتيباً معقولاً ، يضمن الوصول إلى إيجاد الكلمة المطلوبة بأعظم ما يمكن من السرعة والسهولة . ولا شك في أن هذه السرعة والسهولة لا تحصلان إلا بترتيب

الكلمات بحسب حروفها الهجائية . ومن البديهي أن هذه ليست من الأمور التي تختلف بين لغة وأخرى بوجه من الوجوه .

غير أن معلماً ثالثاً اشترك في البحث سائلاً :

— يعنى ، تريد أن تكتب مثلاً كلمة الاستغفار في مادة الألف ، وكلمة الغفران في مادة الغين ؟

قلت بدون تردد : نعم

فقال المعلم بلهجة المؤمن المتقصد الذي يشور على أمثال هذه البدع :

— ولكن هذا لا يجوز في اللغة العربية . . .

فسألته : لماذا ؟

فأجابني بحيرة ظاهرة :

— لأننا إذا فعلنا ذلك لا يتعلم الطلاب ، مثلاً ، أن الاستغفار من باب الاستفعال ، وأن مادته الأصلية هي غفر . . . حاولت أن أقنع مخاطبي ببعض البراهين ، فقلت :

— إن لتعليم هذه الأمور ألف وسيلة ووسيلة . . . حتى إن المعجم الذي أتصوره وأقترحه يكون — هو أيضاً — من أحسن الوسائل لذلك : بدرج القاموس كلمة الاستغفار في المحل الذي يتطلبه ترتيب حروفها الهجائية ، ويذكر بجانب الكلمة مادتها الأصلية . . . فيجد الطالب الكلمة في المعجم بكل سهولة ، ويتعلم — في الوقت نفسه — من قراءة ما كتب عنها أن مادتها الأصلية هي غفر ، وأنها تدل على طلب المغفرة . . . سكت مخاطبي كما سكت زملاؤه . غير أنني لمحت في أعينهم ما يدل على أن هذا السكوت لم يأت من الاقتناع ، بل تأتى من الاعتقاد بأن كل اعتراضاتي هذه ما هي إلا نتيجة عدم إلمامي بقواعد العربية الإلام الكافي ، وعدم فهمي لخصائصها الفهم اللازم . . .

مضى على هذه المناقشة أكثر من عشرة أعوام . . . ثم عدت إلى قضية المعاجم — في هذه الأيام — مرة أخرى ، وعلمت — في حيرة جديدة — أن اللغة العربية لم تحظ إلى الآن بمعجم عصري بالمعنى الذي يفهم من كلمة المعجم في جميع لغات العالم . . . كما علمت بأن الجمع اللغوي الملكي نفسه لم يقدر

أهمية هذه القضية حتى قدرها ، ولم يدخلها في عداد الأعمال التي
يسمى لتحقيقها ...

فرايت من الواجب على أئب ألفت أنظار علماء العربية
وملمها إلى هذا الأمر الهام من فوق منبر (الرسالة) الفراء ،
وأن أدعوهم إلى العمل على إزالة هذا النقص الفادح

إن المعجم بمثابة مخزن للكلمات ، معد لمراجعة جميع
الناس ، بحيث يستطيع كل شخص أن يدخل هذا المخزن فيتناول
منه الكلمة التي يقصدها ، دون أن يحتاج إلى مساعدة أحد يده
على موضعها ... ولهذا السبب تصنف الكلمات في هذه المخازن
العامة تصنيفاً يضمن إيجاد ما يراد منها بأمرع الطرق وأسهلها .
ولهذا السبب يختلف التصنيف المعجمي عن التصنيف الصرفي
والنحوي اختلافاً كبيراً ، ويكون هذا التصنيف ألفبائياً - بوجه
عام - لكي يستطيع كل فرد أن يجد أية كلمة من الكلمات فيه ،
بمجرد تذكر ترتيب الحروف الهجائية في الألفباء ...

غير أن المعجم العربية تشذ عن هذه القاعدة العامة شذوذاً
غريباً ، لأنها تصنف الكلمات تصنيفاً مُفهماً بالالتواء والتعقيد ،
بحيث لا يستطيع أحد أن يجد كلمة من الكلمات إلا إذا عرف
- مقدماً - مادتها الأصلية وكيفية اشتقاقها من تلك المادة
بصورة تفصيلية

فلو أراد أحد أن يراجع المعجم في كلمة « الاستيلاء »
مثلاً ، فعليه أن يلاحظ قبل كل شيء أن هذه الكلمة من باب
« الاستفعال » ، كما يعرف - سلفاً - أن مادتها الأصلية هي
« ولي » ، وعليه أن يبحث عنها - مستنداً إلى هذه المعلومات -
في الصفحات الخاصة بحرف الواو فاللام ... وأما إذا أراد أن
يراجع المعجم في كلمة « الاستواء » ، فعليه أن يعرف أنها
من باب « الافتعال » وأن مادتها الأصلية هي « سوى » ، فعليه
أن يبحث عنها - مستنداً إلى معلوماته هذه - في الصفحات
الخاصة بحرف السين فالواو ... غير أنه إن كان لا يعرف ذلك
فن الدب أن يراجع القاموس ويقلب صفحاته ، لأن القواميس
العربية لا تدل على مواضع مثل هذه الكلمات إلا لن يعرف مثل
هذه الدقائق الصرفية واللغوية حق المعرفة

أليس ذلك مخالفاً لأبسط قواعد التعلم ولأوضح مبادئ
التعليم ... ؟

لنأخذ مثلاً آخر : لنفرض أننا طلبنا من أحد الطلاب أن
يبحث في المعجم عن كلمتي : الاستعانة ، والاستكانة ... إن هاتين
الكلمتين متشابهتان ومتقاربتان من حيث اللفظ والكتابة ؛ فإن
الحروف الثلاثة الأولى مشتركة في كليهما ، وكذلك الحروف الثلاثة
الأخيرة ؛ والفرق بينهما يتحصر في الحرف الرابع وحده ، مع
كل هذا فإن موقع كل منهما في المعجم يتباعد عن موقع
الأخرى تباعداً غريباً جداً ؛ فعلى الطالب الذي يبحث عن هاتين
الكلمتين في المعجم ، أن يعرف أن الكلمة الأولى من باب
« الاستفعال » من مادة « عون » فيراجع من أجلها حرف
العين فالواو ؛ كما عليه أن يلاحظ أن الكلمة الثانية قد تكون
من باب « الإستفعال » من مادة « كون » أو من باب « الافتعال »
من مادة « سكن » ؛ فعليه أن يراجع حرف للكاف فالواو نظراً
للاحتمال الأول ، وحرف السين فالكاف نظراً لاحتمال الثاني
وهل يمكن للمرء أن يتصور طريقة تصنيف أعظم من هذه
للطريقة ، وخطة تبويب أسخف من هذه الخطة ... من وجهة
مقتضيات العقل والمنطق من جهة ، ومطالب التربية والتعليم من
جهة أخرى ؟

إن المعجم العربية الموجودة بين الأيدي لا تزال تضع
الاشتقاق في الموضع الأول من الاعتبار ، فهتم بأنساب للكلمات
قبل كل شيء وفوق كل شيء ، كأنها لا تريد أن تعترف بشيء
من حق الاستقلال للكلمات المشتقة ، مهما كان مبلغ تخصصها
في معنى من المعاني ، ومهما كانت درجة تباعد هذا المعنى الخاص
عن المعنى الأصلي ... إنها لا تعترف لها بحق الاستقلال في بيت
خاص حتى ولو كانت قد أصبحت رئيسة أسرة خاصة ، ومنشأ
ذرية كبيرة ، كأنها تريد أن تبقها تحت وصاية مستمرة وتحتم عليها
أن تسكن على الدوام ، في دار « جدّها الأعلى » مع جميع أفراد
العشيرة التي تنسب إليها ...

ولكن ، لماذا أطيل الكلام في هذه الأمثلة للمجبية ؟ إن معاجتنا لم تعترف بحق الاستقلال ، حتى لكلمة الاستقلال نفسها ! فهي لا تزال تعتبرها تابعة لـ « قل » ، فتحتّم عليها السكنى في مسكن « للقلة والقليل » ... !

نعم ، إن كلمة الاستقلال التي تثير في النفوس ما تثيره من المواقف الجياشة على الدوام ، والتي تتكرر في الفصائد الوطنية والأناشيد المدرسية كل يوم مئات ، بل آلاف المرات ... كلمة الاستقلال التي كان معناها - ولا يزال - سبباً لتضحيات كبيرة في الجهود والأموال والأنفس - كلمة الاستقلال هذه لم تستقل في معاجتنا إلى الآن .

فلي كل من يود التعرف إليها في القاموس أن يطرق باب « قل » وأن يعرف أنه سيلقيها بجانب كلمة « القليل » !

أنا لا أدري بماذا أنمت معاجتنا لاتباعها هذه الخطط الموءاة ، وسكوت علمائنا عن هذه النقائص الفادحة . غير أنني أميل إلى تعليل هذا الاستمرار وذلك السكوت بتأثير عاملين أساسيين :

أولاً : عمل قانون الألفة الذي يجعل الإنسان لا يشعر بأكره الروائح ، ولا ينتبه إلى أفدح النقائص ، عند ما يألفها ألفة طويلة ، ولا سيما عند ما تكون ألفته هذه اجتماعية ...
ثانياً : عمل روح المحافظة التي تطلب إبقاء القديم على قدمه فتتمطل نوازع العمل عند ما ترمى إلى تغييرات أساسية في الأمور المقررة سابقاً ، ولا سيما عند ما تكون تلك الأمور متعلقة بالتقاليد الاجتماعية ...

إنني أستطيع أن أضيف إلى هذين العاملين الأصليين عاملاً فرعياً ثالثاً ، وهو عمل نزعة الاهتمام بالأمور الزانة التي تلفت الأنظار ، أكثر من الانصراف إلى معالجة المسائل الجوهرية التي لا تأتي بنتائج تبهّر الأبصار وإن كانت كثيرة الفائدة ...

إنني أعتقد أن الخروج على هذه العادات والتزات بوضع معاجم عصرية بالمعنى المشروح آنفاً - أصبح من أهم الواجبات التي يجب على رجال العلم والتعليم ، ومحافل اللغة والأدب ، ووزارات التربية والمعارف - في جميع البلاد العربية ... كما أعتقد

فلنترك الألفة المهدّرة جانباً ، ولنفسح لأذهاننا مجال التفكير الحر خارجاً عن الطرق المألوفة قليلاً : هل من المعقول أن نستمر على هذه الخططة في معاجتنا ، ولا سيما في المدرسية منها

هل من المعقول - مثلاً - أن نستمر على إدخال كلمة الصباح في مادة المصباح ، فنتركها في معاجتنا ضائعة بين كلمات المصباح ، والمصباحة ، والمصبوح والمصبوحة والاصطباح والاستصباح ... ؟ وهل من المعقول أن نستمر على عدم اعتبار لفظة « الأنوبة » كلمة قائمة بنفسها ، وعلى إدخالها في درج الـ « نب » ونظل نطلب من أطفالنا وطلابنا أن يجدوها هناك ؟ وهل من الحكمة في شيء ألا نوجد محلاً ملائماً لوضع كلمة « الميزانية » في غير الخزانة المخصصة لمادة « الوزن » ... ؟

وعند ما أكتب هذه الأسطر يتوارد على ذهني أمثلة كثيرة من هذا القبيل ، كأنها تتسابق في التباعد عن قواعد العقل والمنطق ومبادئ التربية والتعليم إلى أقصى حدود التباعد ...

إن كلمة الاستثناء - مثلاً - بالرغم من معناها الخاص الذي يلعب دوراً هاماً في الحقوق والقوانين ، وبالرغم من كثرة المحاكم التي تسمى بها لا تزال تلتجى في المعاجم إلى ظل كلمة « الأنف » ! ...

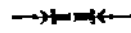
وكلمة « الاستراحة » - التي يستعملها الناس في كل يوم مئات من المرات - لا تزال محبوسة في المعاجم في دار « الراح » ، وعشورة بين كلمات شتى المعاني والألفاظ : كالراح والراحة والأريحية والريحان ...

حتى أن كلمة « المدرسة » نفسها لم تكتسب في معاجتنا حق الاستقلال ؛ فهي لا تزال تابعة - في نظرها - إلى كلمة المدرس وبجيرة على الاندساس بين كلمات متخالفة التزات مثل « اندراس » المعلم والمباني و « دراسة » الخططة والحبوب ! ...

وكلمة « الاقتصاد » التي أصبحت بمعناها الاصطلاحي الجديد من أهم عاور الحياة الاجتماعية - لا تزال مخفية في معاجتنا بين الكلمات التي من طراز المقصد والمقصود ، والقاصد والمقصودة وبين المعاني التي تدل على موت الكلب ، واستقامة الطريق ، وأغصان الموسج ! ...

إنذار

نيم البكاء والاستعطاف والاستجداء ؟ إنما المرأة
— في دخيلة نفسها — تهوى الرجل الذي يستخف بكبريائها



سَمِعْتُكَ حَتَّى سَمِعْتُ النِّسَاءَ فَأَمْسَيْتُ أَخْتِي عَلَى هِزْزِي

جَبِينُكَ جَفَّ عَلَيْهِ الْجَمَالُ كِرِهْتُ الْمَهَابَةَ بِالْيَتِ
وَطَرْفُكَ يَزِيدُ رَوْعَ الصَّرَاعِ إِنَّ التَّهَيُّتَ ثَرَّةٌ مُغْلَقِي
وَهَدُوكَ يَحْتَالُ طَلِيئِي لَهُ تَدْرَعُ مُتَمَقِّعَ الْحَيَاءِ الْعَتِي
وَحَصْرُكَ خَاذِلَهُ الرَّخْصُ حَتَّى تَمَاسِكَ حَرْبًا عَلَى صَبَوَتِي
وَسَأُفُكُ لُفَّتَ بِشَفِّ مَصُونٍ تَفَارِيحُهُ سُخْرَةُ الْمُثَنَّةِ

مِفَاتِنُكَ لِلْفَارَاتِ أَسَاطِيرُ تَفْتَرُ فِي كُتُبِ رَدَّتِ

برلين ، فبراير ١٩٣٥ بصر فارس

«مراجعة المعجم» من الواجبات المدرسية ...

أنا لا أدري كم يكون طول المدة التي ستمضي بين كتابة
هذه الأسطر وبين ظهور المعجم التي نشير إليها ... كالا أدري
ماذا يكون مبلغ ونوع مساهمة كل من الكتاب والناشرين
والهيئات العلمية والدوائر الرسمية في تحقيق هذا المشروع المهم
عن طريق العمل المباشر أو التشجيع والمساعدة ...

مع هذا أتمنى بكل قلبي أن تتضافر جهود الأفراد والهيئات
والحكومات في هذا السبيل — بكل الوسائل الممكنة — لكي
تقر أعيننا بمعاجم عربية من هذا القبيل ... قبل أن يمضي

وقت طويل

أبو ظهرو

(بغداد)

أن وضع مثل هذه المعاجم العصرية التي تعترف باستقلال
الكلمات ، وتجعل الوصول إلى كل واحدة منها من الأمور
المتيسرة لكل شخص — هو أهم بكثير من البحث عن الكلمات
التي تقابل : التلفون ، والكافور ، والراديو ... وحتى من إيجاد
الاصطلاحات التي تدل على أسماء الأمراض ، ودقائق التشريح
وأما الخطوة التي يجب السير عليها لوضع هذه المعاجم فهي
بسيطة وجلية :

أولاً — يجب أن تبذل الجهود اللازمة لوضع معجم مختصر
يحتوي على الكلمات التي يستعملها الناس ويحتاج إليها طلاب
المدارس الابتدائية . ولتعيين هذه الكلمات يجب أن تستعرض
طائفة من الكتب المدرسية من جهة ، وتدرس كمية من الأخبار
والإعلانات المنشورة في الجرائد اليومية من جهة أخرى ؛
وتستحضر بطاقات خاصة بكل كلمة من الكلمات التي تصادف
خلال هذا الدرس والاستعراض ؛ ثم ترتب هذه الكلمات
حسب نظام حروفها الهجائية ، ويكتب إزاء كل واحدة منها
معناها الاصطلاحي ، كما يشار إلى مادتها الأصلية ، وإلى كيفية
اشتقاقها من تلك المادة. وأخيراً تذكر أهم الكلمات المشتقة منها،
تسهيلاً لراجعتها في سائر أقسام المعجم

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى تبذل الجهود اللازمة
لتنظيم معجم أكثر تفصيلاً من ذلك ، ليكون مرجعاً لطلاب
المدارس الثانوية والعالية ، ولرجال الطبقة المثقفة بوجه عام ،
على أن تعين كلماته على طريقة استعراض الكتب المدرسية من
جهة ، ودرس المجلات العلمية والأدبية من جهة أخرى
وأخيراً يجب أن يوضع معجم مفصل عام ... يتضمن
جميع الكلمات المستعملة في الكتب القديمة والحديثة على اختلاف
أنواعها وتواريخها ...

وأما المعاجم القديمة ، فتبقى كمراجع أساسية يرجع إليها
العلماء والاختصاصيون

وأعتقد أنه لا يحق لنا أن نتوقع تقدماً حقيقياً في تعليم
اللغة العربية ما لم توجد مثل هذه المعاجم ... ويجعل أمر